مجلة الآداب و الحضارة الإسلامية ISSN: 1112-4628, EISSN: 2588-2449
مجلد : 21 عدد 2 السنة :2022

السِّياق عند المحدثين منهجا متكاملا لفهم الحديث النبوي

Context, according to the hadith scholars, is an integrated approach to understanding the Prophet's hadith

الملتقى الدولي

الحديث النبوي الشريف وآليات تحليل الخطاب

11و12 شعبان1443هـ الموافق: 14و15مارس 2022م

أد/ أبو بكر كافي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة

تاريخ الاستلام: ../../2022 تاريخ القبول: ../../2022. تاريخ النشر: 2022/07/28

الملخص:

احتكم علماء الحديث إلى منهجية دقيقة ومنضبطة لفقه الأحاديث وفق قواعد ومنطلقات واضحة، نجد من أهمها قاعدة السياق؛ التي اتخذوها قاعدة منهجيَّة وركيزة مهمَّة من ركائز الفهم يستجلي بها المعنى المقصود من خطاب النَّبيِّ –صلَّى الله عليه وسلَّم–، فكانوا لا يعتبرون اللَّفظ بمجرَّده في الفهم، بل يعملون على توسيع دائرة النَّظر ليشمل التَّراكيب اللُّغوية للحديث ونظمه العام، مع الامتداد إلى خارج النَّص واعتبار ظروفه وملابساته المحيطة به.

وقد ظهر تطبيق دلالة السِّياق في الشَّرح الحديثي عندهم في جوانب مختلفة، فكان لها أثر في ضبط نصِّ الحديث، وفي جودة الاستنباط ودقَّة التَّحليل بتحديد معاني الألفاظ بدقَّة، وكذا في التَّرجيح بين المعاني التي يحتملها الحديث، كما استرشدوا بها في حلِّ الإشكالات الواردة على الحديث النَّبوي والكشف عن كثير من غوامضه.

الكلمات المفتاحية:السياق ، المحدثين ، الحديث النبوي ، المنهج.

Summary:

Hadith scholars resorted to a precise and disciplined methodology for jurisprudence of hadiths according to clear rules and principles, the most important of which is the rule of context. Which they took as a methodological basis and an important pillar of understanding through which the intended meaning of the speech of the Prophet - may God bless him and grant him peace - becomes clear. They did not consider the word merely in understanding, but rather worked to expand the circle of consideration to include the linguistic structures of the hadith and its general organization, while extending outside the text and considering His circumstances and circumstances surrounding him.

The application of the meaning of context in hadith commentary appeared among them in various aspects, and it had an impact in controlling the text of the hadith, in the quality of deduction and the accuracy of the analysis by accurately determining the meanings of words, as well as in weighing between the meanings that the hadith can bear, and they were also guided by it in solving the problems arising from the Prophet's hadith. And revealing many of its mysteries.

Keywords: context, hadith scholars, prophetic hadith, method.

وستناول هذا البحث وذلك وفق الخطة الآتية:

المطلب الأول: مفهوم السِّياق، وأنواعه، وأهميته في فهم الحديث النبوي

الفرع الأول: مفهوم السِّياق

الفرع الثاني: أنواع السِّياق

الفرع الثالث: التَّأصيل النَّظري لأهمية السِّياق في فهم الحديث النبوي

المطلب الثاني: أثر دلالة سياق المقال في فهم الحديث النبوي

الفرع الأول: أثر دلالة السِّياق المقالي الخاص

الفرع الثاني: أثر دلالة السِّياق المقالي العام

المطلب الثالث: أثر دلالة سياق المقام في فهم الحديث النبوي

الفرع الأول: معرفة حال المخاطِب وأثره في فهم الحديث

الفرع الثاني: أثر معرفة حالِ المخاطَب عوائد العرب في فهم الحديث النبوي

الفرع الثالث: أثر معرفة ملابسات الحديث وظُروفه في فهم الحديث النبوي

المطلب الأول: مفهوم السِّياق، وأنواعه، وأهميته في فهم الحديث النبوي

قبل بيان الأصول النَّظرية والتَّطبيقات العملية في فهم السنة النَّبوية في ضوء سياقاتها عند المحدثين، يحسن بنا الوقوف عند تحرير معنى السياق، وأنواعه، ثم الكشف عن الأهمية التي أناطها العلماء بدلالة السِّياق في التَّعرف على المراد وتحديده بدقَّة.

الفرع الأول: مفهوم السياق

– **السياق في اللُّغة:** مأخوذ من الجذر اللُّغوي (س و ق)، "أَصله سِواق فقلبت الواو ياء لكسرة السين والسِّياق والسَّوْق مصدران من ساقَ يَسُوق"[1].

ومن خلال المادة اللُّغوية التي قدَّمتها لنا معاجم اللُّغة نجد أنَّ السياق يجمع دلالات عدَّة يمكن حصرها فيما يلي:

1. **التتابع والتَّسلسل والانسياق والتَّوالي:** يقال: ساقَ الإبلَ وغيرَها يَسُوقها سَوْقاً وسِياقاً وهو سائقٌ وسَوَّاق[2]، وهو المعنى الأصلي للكلمة، ثم انتقل عن طريق المجاز للدلالة على المسوق وهو المهر إبلا أو غيرها.

2. **السوق:** الموضع الذي يجلب إليه المتاع للبيع، ويجمع على أسواق[3].

[1] لسان العرب، (166/10).

[2] المصدر نفسه، (166/10).

[3] مفردات ألفاظ القرآن، (514/1).

3. **النَّزع عند الموت:** تقول رأيت فلاناً يَسُوق سُوُقاً أي يَنْزِع نَزْعاً عند الموت، ويقال فلان في السِّياق، أي في النَّزْع، والسِّياق نزع الروح[4].

فالسِّياق لم يسمَّ سياقا إلا بتساوق ألفاظ النَّص وعباراته وتتابعها، لتؤدي معنى معيَّنا بفضل ذلك التَّتابع فلو غير سياقها لاختلف معناها، وقد جاء في المعجم الوسيط: "وسياق الكلام تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه"[5].

الفرع الثَّاني: السياق اصطلاحا

مصطلح السِّياق وإن كان مصطلحا مألوفا وكثير التَّداول منذ القديم؛ إذ تناوله العلماء واستثمروه واستعانوا به في فهم دلالات النُّصوص، ونصُّوا على آثاره من بيان المجملات وتعيين المحتملات ورفع الإشكالات والتَّرجيح بين المختلفات، وغيرها، وكان أوَّل من اعتنى به من الأصوليين الإمام الشافعي في كتابه العظيم "الرسالة" الذي أفرد فيه بابا سمَّاه "باب الصِّنف الذي يُبيِّن سياقه معناه" وساق فيه الأمثلة التي تشهد لبيان دلالة السِّياق على المعنى[6]، غير أنَّ الشَّافعي ومن بعده من العلماء لم يهتمُّوا بتقعيد قواعد السياق ووضع تعريفٍ جامعٍ مانعٍ له، وقد أشار إلى هذا المأخذ الإمام ابن دقيق العيد عند حديثه عن قاعدة السياق وأهميتها في الفهم فيقول: "ولم أر من تعرَّض لها في أصول الفقه بالكلام عليها، وتقرير قاعدتها مطولة، إلَّا بعض المتأخرين ممَّن أدركنا أصحابهم"[7].

بل حتَّى في عصرنا هذا لا يزال مصطلح السِّياق من المصطلحات العصيَّة على التَّحديد الدَّقيق، وإن كانت قد بذلت جهود كثيرة في سبيل إيجاد تعريف جامع مانع له، إلَّا أنَّه لا يزال قيد التَّحرير والمعالجة من قبل كثير من العلماء والباحثين.

والملاحظ على استعمالات الأصوليين لمصطلح السِّياق أنَّهم ما بين مضيِّق لمدلوله وموسِّع؛ فمنهم من يحصره في الجوِّ الدَّاخلي للنَّص وذلك بمراعاة انتظام الكلمة مع ما قبلها وما بعدها، ومنهم من يضيِّق أكثر فيخصُّه بلاحق الكلام دون سابقه، وهذان المعنيان أكثر التصاقا وملازمة للمعنى اللُّغوي الذي يدور على التَّتابع والتَّوالي، وأقرب إلى الذِّهن إذا أطلق هذا المصطلح.

ومن الأصوليين من وسَّع مدلوله ليمتدَّ إلى خارج النَّص فيشمل كافة القرائن والملابسات المحيطة بالنَّص،

[4] لسان العرب، (166/10).

[5] المعجم الوسيط، (465/1).

[6] الرسالة، (ص62).

[7] إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، (ص424)

وأحوال المخاطبين، وهذا المدلول الموسَّع له ما يشهد بصحَّته من النَّاحية اللُّغوية كما سبق بيانه، لذا ينبغي اعتماد ملوله الموسَّع، وعدم إهماله.

ولعل أوسع التَّعاريف التي وضعها الباحثون المعاصرون تعريف الدكتور عبد الرحمان بودرع، الذي يقول فيه: "السياق إطار عام تنتظم فيه عناصر النَّص ووحداته اللُّغوية، ومقياس تتصل بوساطته الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداولية ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النَّص للقارئ"[8].

الفرع الثاني: أنواع السياق

تعدُّ قاعدة السياق من كبرى القرائن التي يستعان بها في الفهم، وذلك لشيوعها وامتدادها بدءًا من داخل النَّص ومكوِّناته النَّحوية والصَّرفية وغيرها، ثم تتَّسع لتسري إلى خارج النَّص فتعُمَّ ظروفه وملابساته المحيطة به، وهذا ما يؤكِّده الدكتور تمَّام حسان بقوله: "وهكذا تمتد قرينة السياق على مساحة واسعة من الركائز، تبدأ باللُّغة من حيث مبانيها الصرفية وعلاقاتها النحوية ومفرداتها المعجمية، وتشمل الدلالات بأنواعها من عرفية الى عقلية الى طبيعية كما تشتمل على المقام بما فيه من عناصر حسية ونفسية واجتماعية كالعادات والتقاليد ومأثورات التراث، وكذلك العناصر الجغرافية والتاريخية، مما يجعل قرينة السياق كبرى القرائن بحق"[9].

وعليه فقد قسَّم العلماء دلالات السِّياق إلى قسمين كبيرين شاملين، لكل منهما خصائصه ودلائله الوظيفية:

أولا: سياق المقال

وهو السياق اللُّغوي الدَّاخلي الذي ينتج عن ترابط الأصوات فيما بينها لتوليد الكلمات، والكلمات فيما بينها لتشكيل الجمل، والجمل فيما بينها لتشكيل النص، وقد أكَّد السكَّاكي قديما على أهميَّة مقام الكلمات داخل مقال الخطاب فقال: "ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقال"10.

ثانيا: سياق المقام

وهو الذي يمثل البيئة التَّفاعلية بين المتحدث والمخاطَب، وما بينهما من عرفٍ سائد يحدد مدلولات الكلام، وذلك أن تداول الخطاب يجري في سياق ثقافي واجتماعي بين المتحدث والمخاطب، وليس لفظاً

[8] منهج السياق في فهم النص، (ص27).
[9] البيان في روائع القرآن، (ص:221-222).
[10] مفتاح العلوم، (ص80).

مجرداً عن محيطه الذي يجري فيه[11].

فيشمل كل القرائن الخارجية المحيطة بالنَّص وزمن وروده من زمان ومكان، وكذا الواقع بعناصره ومكوناته المختلفة، والأعراف والعادات السائدة، وأسباب الورود، وغير ذلك من المؤثرات الخارجية التي تساهم في الكشف عن المعاني المقصودة من الخطاب.

والقرائن الحالية كثيرة جدا ومتنوعة لدرجة استحالة حصرها في جنس أو عدد، أو ضبطها بوصف، وهذا ما عبر عنه إمام الحرمين بقوله: "وهي تنقسم إلى قرائن مقال وإلى قرائن أحوال، أما الأحوال فلا سبيل إلى ضبطها تجنيسا وتخصيصا"[12].

العلاقة بين السياقين

العلاقة التي تربط سياق المقال بسياق الحال هي علاقة تكامل وظيفي، ويمكن تشبيه هذين النَّوعين في تأدية المعنى والوصول إليه بجناحي الطَّائر، فإذا وجدا مع بعضهما وتكاملا في وظيفتهما فإنَّهما يوصلان إلى المقصود، ويبلغان إلى الفهم الصَّحيح، وإذا فقد أحدهما فإنَّ المعنى يميل عن جادة الصواب، وينحرف إلى أحد جوانب الإفراط أو التفريط، "فالاقتصار على السياق المقالي وحده، سيجعل النص بيئة مغلقة تقتصر على ما تفيده الألفاظ من دلالات ومعان، وتحرم الباحث من البيئة الخارجية المحيطة بالنص، كما أن التَّوقف عند دلالة سياق المقام فقط تجعل الباحث يحوم حول حمى النَّص دون الولوج إليه"[13].

الفرع الثالث: التَّأصيل النَّظري لأهمية السياق في فهم الحديث النبوي

إنَّ الاستنباط اعتماداً على سياق النَّص ليس وليد العصور المتأخرة، بل هو منهج أصيل في الفهم أسَّس له النَّبيُّ -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فقد ثبت عنه -صلَّى الله عليه وسلَّم- أنَّه استخدم دلالة السياق في الاستنباط ففي السنن أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- قَالَتْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ [المؤمنون: ٦٠]، قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ قَالَ: «لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ

[11] ينظر: دلالة السياق وأثرها في فهم الحديث النبوي من خلال تطبيقات الأئمة، عبد المحسن التخيفي، ضمن بحوث ندوة: السنة النبوية بين ضوابط الفهم السديد ومتطلبات التجديد، (ص287).

[12] البرهان في أصول الفقه، (1/185-186).

[13] دلالة السياق وأثرها في فهم الحديث النبوي من خلال تطبيقات الأئمة، مرجع سابق، (ص276).

مِنْهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ»[14].

فهذه الآية: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ بعزلها عن السياق الذي وردت فيه، وفصلها عن سابقها ولاحقها من الآيات، تحتمل أنها واردة في أهل المعاصي المقبلون عليها بجوارحهم وقلوبهم خائفة وجلة من ربهم وخائفة من عقابه، وهو المعنى الذي فهمته عائشة -رضي الله عنها- وتحتمل أنها واردة في أهل الطاعات الذين يجتهدون فيها مع خوفهم أن لا تقبل منهم، وهذا المعنى الثاني هو الذي رجحه النَّبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- بالنظر إلى لاحق الآية إذ يقول سبحانه وتعالى بعدها: ﭽ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ [المؤمنون: ٦١].

وهذا المسلك من النَّظر والاستنباط أخذه الصَّحابة -رضي الله عنهم- عن النَّبي -صلى الله عليه وسلم- وساهموا به في رفع بعض الإشكالات الواردة على الفهم، وعنهم أخذه التَّابعون ومن بعدهم من تابعيهم وأئمة الدين.

ويُعدُّ السياق من أقوى الوسائل المنهجية التي تخدم النَّص وتعمل على الكشف عن معانيه ودلالاته، وهذه القوَّة في الدلالة إنَّما اكتسبها من مجموع العناصر اللُّغوية والحالية التي يضمها بين ثناياه، وتظهر ثمرة الالتفات إلى السياق واستثماره في فهم السنة النبوية، في أنحاء عديدة، وتبدو في مظاهر مختلفة، يمكن حصرها في النقاط الآتية:

1. **أنَّه يعين على حسن الاستنباط من الحديث؛ بتحديد معاني ألفاظ الحديث بدقة:** وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت728هـ): "ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه، وما يبين معناه من القرائن والدلالات، فهذا أصل عظيم مهم نافع، في باب فهم الكتاب والسنة"[15].
2. **تحديد معاني الألفاظ المشتركة:** وذلك أنَّ "معنى الكلمة في المعجم متعدِّد ومُحتمل، ولكن معنى اللفظ في السياق واحد لا يتعدَّد"[16].
3. **تعيين دلالات ألفاظ للحديث:** من حيث العموم والخصوص، والإطلاق والتَّقييد وغيرها، وفي ذلك يقول ابن القيم (ت751هـ): "السياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام[17] وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدَّالة على مراد المتكلم فمن اهمله

[14] سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-، باب سورة المؤمنون، رقم الحديث(3175)، (327/5).

[15] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (8/83).

[16] اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، (ص316).

[17] إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، (ص278)

غلط في نظره وغالط في مناظرته فانظر إلى قوله تعالى ذق إنك أنت العزيز الكريم كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير"[18]

4. **التَّرجيحُ وحلُّ الاشكالات:** وفي ذلك يقول الزركشي: "وما يعين على معرفة المعنى عند الإشكال.. دلالة السياق: فإنها ترشد إلى تبيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد... ".

ويقول ابن جزي الكلبي: "من أوجه الترجيح: أن يشهد بصحة القول سياق الكلام، ويدل عليه ما قبله وما بعده".

5. استبعاد الأقوال الغريبة وكذا التأويلات البعيدة: وفي ذلك يقول ابن عاشور: " لم يستغن المتكلمون والسَّامعون عن أن تحفَّ بالكلام ملامح من سياق الكلام، ومقام الخطاب، ومُبيِّنات من البساط لتتظافر تلك الأشياء الحافَّة بالكلام على إزالة احتمالات كانت تعرض للسامع في مراد المتكلم من كلامه"[19].

6. الردُّ على أصحاب القراءات الحداثية المعاصرة: التي تدعو إلى انفتاح النَّص على جميع المعاني، سواء أكانت قريبة أم بعيدة كل البعد، وهذه القراءة تقوم على النظرة التفكيكية والتَّجزيئية للنَّص وذلك بعزله كليّا عن إطاره العام الذي ورد فيه، وصرفه عن حدوده الدِّلالية.

يقول محمد أركون: "إنَّ القراءة التي أحلم بها هي قراءة حُرَّة إلى درجة التَّشرُّد والتَّسكُّع في كل الاتجاهات، إنَّها قراءة تجد فيها كل ذات بشرية نفسَها"[20].

وهنا تظهر أهمية السياق في الرد على هذه القراءات الحداثية الجائرة، وإبطال دعوتها من أساسها؛ كون السياق يتعامل مع النَّص في ضوء التَّتابع المنطقي لألفاظه وملابساته المحيطة به.

المطلب الثاني: أثر دلالة سياق المقال في فهم السنة

وظف المحدثون والشراح السِّياق المقالي باعتباره من أهم القرائن اللُّغوية التي تساهم في سبر أغوار الأحاديث النَّبوية واستخراج كنوز اللطائف والمعاني، فنجده لا يعتبر اللَّفظ بمجرَّده في الفهم، بل يعمل على توسيع دائرة النَّظر ليشمل التراكيب اللُّغوية للحديث ونظمه العام.

ويتجلَّى أثر دلالة السِّياق المقالي في فهم الحديث عند المحدثين في مستويين: مستوى السياق المقالي الخاص، ومستوى السياق المقالي العام.

---

[18] بدائع الفوائد، (4/815).

[19] مقاصد الشَّريعة الإسلامية، (ص203-206).

[20] ينظر: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، (ص76).

أولا: أثر دلالة السياق المقالي الخاص في فهم السنة

في هذا المستوى ينبغي استيفاء النَّظر في جميع أطراف الحديث الواحد من مُبتدئه إلى منتهاه، وذلك بردِّ آخر الكلام على أوَّله، وأوَّله على آخره، ومراعاة سابقه ولاحقه وانتظام عناصره وارتباط تراكيبه اللُّغوية.

وقد انتظم هذا الأمرَ جملة من العلوم والأدوات عندهم منها:

1. الاهتمام بالنحو والحث على تعلمه والتحذير من اللحن.
2. وضع قواعد دقيقة للرواية بالمعني تفاديا للإحالة المعاني وتحريفها.
3. الحرص على الضبط والتصحيح للكتب والتحذير من التصحيف والتحريف وبيان ما وقع منه عند المحدثين في مصنفات خاصة كتصحيفات المحدثين للعسكري، وإصلاح غلط المحدثين للخطابي وغيرهم.
4. كما عنو بضبط الروايات وبيان مشكل منها وصنفوا في ذلك عدة كتب من أشهرها شوارق الأنوار في ضبط صحيح الاخبار للقاضي عياض وتهذيبه "طوالع الأنوار" لتلميذه ابن قرقول الوهراني.
5. كما اهتموا بضبط المعاني الصحيحة في سياقتها الواردة في الحديث الخاص دون الجمود على المعاني المعجمية العامة، ولهم في ذلك علم قائم بذاته هو علم "غريب الحديث" واسهم فيه عدد من كبار أئمة اللغة منهم أبو عبيد القاسم بن سلام، وابن قتيبة، والخطابي ، والهروي، والزمخشري، وابن الأثير وغيرهم.
6. كما نجدهم جعلوا ركاكة الحديث وسماجة معانية وظهور اللحن فيه دليلا على عدم صحته لكونه مخالفا للسياق العام من حديثه في شكله ومضمونه، وفي ألفاظه ومعانيه، بكونه فصيحا بليغا جامعا للمعاني والحكم

وقد ظهر أثر الالتفات إلى السياق اللغوي في الشرح الحديثي عند المحدثين في جوانب مختلفة، فكان له أثر في ضبط النص الحديثي، وفي تحديد معاني ألفاظ الحديث، وكذا التَّرجيح بين المعاني التي يحتملها الحديث، وذلك كلُّه خاضع عنده لقواعد اللُّغة العربية، وأساليبها في التخاطب مما يطول شرحه والتمثيل له.

ثانيا: مستوى السياق المقالي العام

وهذا المستوى يُهتمُّ فيه بالجمع الموضوعي لروايات الحديث وطرقه المختلفة، فلا يكتفى فيه بالنَّظر إلى الحديث الواحد وإنَّما يُلتمس معناه من مجموع الأحاديث المشتركة معه في الموضوع؛ بالنَّظر فيها جميعها على

أنَّها حديث واحد، وقد ظهر أثر جمع الرِّوايات عند المحدثين

في مظاهر عديدة، أقتصر هنا على ذكر: بيان المجمل، وتوضيح المشكل، وشرح غريب الحديث.

وقد انتظم هذا الأمرَ أيضا جملة من العلوم والأدوات عندهم منها:

1. جمع أطراف الحديث الواحد للوصول إلى الرواية الكاملة للنص الحديثي وتكفل بهذا عدة علوم كعلم التخريج وعلم العلم نظريا ومارسه الشراح تطبيقيا في شروحهم كالحافظ ابن حجر في فتح الباري والعلامة العيني في عمدة القارئ وغيرهم.
2. جمع الأحاديث المتفقة في الموضوع الواحد وهذا قد نصوا عليه واهتموا به نظريا فمن ذلك قولهم" الحديث يفسر بعضه بعضا" وقولهم " إذا لم نكتب الحديث من ثلاثين وجها ما علقناه"
3. وهذا قد مارسه المحدثون في التصنيف على الأبواب في مدوناتهم الحديثية في الجوامع والسنن والمصنفات والموطآت والأجزاء الحديثية. وصار الآن أسلوبا ومنهجا قائما بذاته هو "الحديث الموضوعي".
4. كما نظروا في الأحاديث المخالفة للموضوع وكيفية التوفيق بينها وتأسس عندهم في ذلك علم قائم بذاته هو علم مختلف الحديث لهم فيه العديد من المصنفات.
5. كما نظروا في النصوص الأخرى من القرآن والسنن المشهور والإجماع والآثار الواردة عن الصحابة وغيرها من القواعد الشرعية ومعرفة مدى موافقة هذا النص او مخالفته لها وكيفية التوفيق بينها إذا ثبت صحته وتأسس لذلك عندهم علم مشكل الحديث ولهم في العديد من المصنفات.
6. كما جعلوا مناقضة النص الحديثي للمألوف من نصوص النبوي صلى الله عليه وسلم وسنته وسيرته دليلا على كونه موضوعا لا يصح عنه.ويغبرون عن هذا بقولهم "هذا لا يشبه حديث النبي صلى الله عليه وسلم".
7. وكذا ما عارض الأصول الثابتة في الشرع يكون دليلا وقرينة على كون الحديث لا يصح عنه

المطلب الثالث: أثر دلالة سياق المقام في فهم الحديث النبوي

استفاد علماء الحديث وشراحه من القرائن والملابسات الخارجية المحيطة بالحديث النَّبوي حال وروده في تحديد معناه بدقَّة ووضعه ضمن الإطار الذي جاء فيه، وذلك بتحليله وفهمه فهما سليما يساعد على تنزيله على محله اللَّائق به والذي أراده له النَّبي –صلَّى الله عليه وسلَّم–، وذلك لتمكنه من العناصر المكوِّنة لسياق الحال بالنسبة للحديث النَّبوي، وهي:

1. **حال المخاطِب:** وهو النَّبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- والمقامات التي تصدر عنها تصرُّفاته.
2. **حال المخاطَب:** وهم الصَّحابة -رضي الله عنهم- والعرب زمن ورود الحديث.
3. **الظروف والملابسات والقرائن** المحتفَّة بالحديث وقت وروده.

وقد انتظم هذا الأمرَ عندهم جملة من العلوم والأدوات منها:

الاهتمام بأسباب وظروف ورود الحديث النبوي وتأسس عندهم علم قائم بذاته هو علم أسباب ورود الحديث الشريف.

كما اهتموا بمعرفة حال صاحب الشريعة ومعرفة تفاصيل حياته ونشأ عندهم علم السير والمغازي وما تفرع عنه من الشمائل والدلائل والخصائص.

كما اهتموا بمقامات الخطاب وأحوال التصرفات النبوية ودلالات الألفاظ ومقاصد التشريع في علم أصول الفقه ومقاصد الشريعة

معرفة حال المخاطِب وأثره في فهم الحديث

لابدَّ من معرفة الحال الذي صدر منه خطاب النَّبيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم-، والتَّمييز بين أنواع تصرفاته، وذلك أقوال النَّبيِّ -صلَّى الله عليه وسلم- وأفعاله كانت تصدر عنه من مقامات مختلفة، فكما أنه رسول مبلغ عن ربه -عزَّ وجلَّ- و"غالب تصرفه -صلَّى الله عليه وسلَّم- بالتَّبليغ، لأن وصف الرسالة غالب عليه"[21]، فهو أيضا إمام للمسلمين ورئيس دولتهم يسوسها بما يصلحها ويدرأ المفاسد عنها، وهو أيضا قاض يحكم بين النَّاس بمقتضى الاجتهاد والنَّظر في الحجج والدَّلائل، وكثيرا ما كان يستشار وتطلب منه النصيحة في شؤون الحياة المختلفة فيجيب بحسب خبرته وما يراه صالحا لهم، وهو مع هذا بشر يتصرَّف بطبيعته البشرية والجبليَّة، فمن الخطأ الجسيم إنزال جميع أقواله وأفعاله منزلة واحدة من التَّشريع والإلزام.

وقد نبَّه الشيخ ابن عاشور على ضرورة التفريق بين أحوال تصرفاته -صلَّى الله عليه وسلَّم- فنجده يقول في ذلك: "ثم على العالم المتشبع بالاطلاع على مقاصد الشَّريعة وتصاريفها أن يفرق بين مقامات خطابها فإن منها مقام موعظة وترغيب وترهيب وتبشير وتحذير، ومنها مقام تعليم وتحقيق فيرد كل وارد من نصوص الشريعة إلى مورده اللَّائق ولا تتجاذبه المتعارضات مجاذبة المماذق"[22].

[21] الفروق، القرافي، (357/1).

[22] التحرير والتنوير، (273/1).

ويرى ابن عاشور أنَّ الغفلة عن تمييز هذه الأحوال والتعامل مع تصرفاته على أساس أنها في مستوى واحد من التشريع والإلزام يؤدي إلى أخطاء جمَّة في الفهم والتَّنزيل، بينما يكون الوعي بتنوُّع وظائف النَّبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وإنزال كل تصرُّف محلَّه اللائق به سببا في رفع الكثير من الإشكالات، فيقول في ذلك: "وقد رأيت في غفلة بعض العلماء عن هذه الأحوال من تصرفاته، عليه الصلاة والسلام، وقوعا في أغلاط فقهية كثيرة، وفي حمل أدلة كثيرة من السنَّة على غير محاملها، وبالاهتداء إلى هذا اندفعت عني حيرة عظيمة في تلك التَّصرُّفات"[23].

وقد عدَّ ابن عاشور من أحوال الرَّسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- التي تصدر منها أقواله وأفعاله اثني عشر حالا وهي: التَّشريع، والفتوى، والقضاء، والإمارة، والهدي، والصُّلح، والإشارة على المستشير، والنَّصيحة، وتكميل النُّفوس، وتعليم الحقائق العالية، والتَّأديب، والتَّجرد عن الإرشاد[24].

معرفة حال المخاطَب وأثره في فهم الحديث

معلوم أنَّ البلاغة تقوم على مراعاة المتكلم لمقتضيات أحوال المخاطبين، ولما كان النَّبيُّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- بالغا في البلاغة درجاتها العليا، وفي الحكمة مراتبها القصوى؛ فإنَّه كان من أشدِّ النَّاس مراعاة لطبائع المخاطبين والعوامل المؤثرة في شخصيتهم، وكذا اعتبار الفروق الفردية بينهم، وأعرافهم وعوائدهم، وكان شأنه في المعاملة شأن الطَّبيب، يعطي كلَّ واحد ما يناسبه، لذا فإنَّه يكون لزاما في عملية الفهم عنه -صلَّى الله عليه وسلَّم- معرفة أحوال المخاطبين وظروفهم، حتى ينزَّل الخطاب محلَّه الصَّحيح.

أثر معرفة الملابسات والقرائن المحتفَّة بالحديث في فهمه

استحضار الظروف والملابسات المحتفة بالحديث وقت وروده بفهمه والكشف عن معانيه الصَّحيحة، عامل مهم في الفهم السديد للحديث النبوي، ذلك أنَّ الأحاديث النَّبوية لا تنفك عن المحيط الزماني والمكاني الذي وردت فيه، وما يحمله هذا المحيط من قرائن يسترشد بها في الفهم.

وكل هذه المقامات لها شواهد تطبيقية في عمل المحدثين والشراح القدامي والمحدثين لا يسع المقام لبسطها، والغرض هو بيان المنهجية العامة والإطار الكلي لفهم دلالات الخطاب النبوي عند المحدثين.

[23] ينظر: مقاصد الشريعة الإسلامية، (ص30).

[24] ينظر: مقاصد الشريعة الإسلامية، (ص212) وما بعدها.

خاتمة:

من خلال هذا العرض الموجز ظهرت عناية المحدثين بدلالة السياق، وانعكاسها على تعاملهم مع نصوص السنة النبوية شرحا وفقها واستنباطا، وفيما يلي أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

1) تعدُّ قاعدة السياق من كبرى القرائن التي يستعان بها في الفهم، وذلك لشيوعها وامتدادها بدءًا من داخل النَّص ومكوِّناته النَّحوية والصَّرفية وغيرها، ثم تتَّسع لتسري إلى خارج النَّص فتعُمَّ ظروفه وملابساته المحيطة به.

2) إن الاستنباط اعتماداً على سياق النَّص ليس وليد العصور المتأخرة، بل هو منهج أصيل في الفهم أسَّس له النَّبيُّ -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وأخذه عنه الصَّحابة -رضي الله عنهم-وعنهم أخذه التَّابعون ومن بعدهم.

3) نصَّ العلماء على أهمية الالتفات إلى السياق واستثماره في فهم السنة النبوية، وبيَّنوا أثره في تحديد معاني ألفاظ الحديث بدقة، وتعيين دلالات ألفاظ للحديث، والتَّرجيحُ وحلُّ الاشكالات، وغيرها.

4) أولى شراح الحديث لدلالة السياق بنوعيه المقالي والحالي عنايةً كبيرةً واهتماماً بالغاً، واتخذوها قاعدة منهجيَّة وركيزة مهمَّة من ركائز الفهم يستجلي بها المعنى المقصود من خطاب النَّبيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم-.

5) كشف البحث عن سبق علماء المسلمين عامة والمحدثين خاصة لكثير من النظريات الغربية في اللغة واللسانيات

التوصيات.

1. ضرورة فهم الحديث النبوي على ضوء منهج متكامل والاستفادة من جهود المحدثين في ذلك.
2. إجراء أبحاث أكاديمية معمقة لاستيفاء الجوانب النظرية والتطبيقية لمنهج السياق في شرح الحديث النبوي في المدونات الحديثية الكبرى.
3. توظيف هذا المنهج لحل كثير من الإشكالات المطروحة على بعض الأحاديث النبوية في عصرنا الحاضر.
4. عقد دراسات مقارنة بين المنهج الحديثي والنظريات اللغوية الحدسثة لمعرفة ما الذي يمكن أن يستفيده كل طرف من الآخر.
5. توظيف هذا المنهج للرد على التأويلات الحداثية المتعسفة للنصوص الحديثية

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري ، المعروف بابن دقيق العيد، تح: مصطفى شيخ مصطفى ومدثر سندس، مؤسسة الرسالة، ط01، 1426 هـ - 2005م.

2) إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تح: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة، 1388هـ/1968م.

3) بدائع الفوائد، تح: (هشام عبد العزيز عطا، عادل عبد الحميد العدوي، أشرف أحمد)، مكتبة نزار مصطفى الباز- مكة المكرمة، (1416هـ-1996م).

4) البرهان في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني أبو المعالي، ط04، تح: عبد العظيم محمود الديب، دار الوفاء، المنصورة- مصر، 1418هـ.

5) البيان في روائع القرآن –دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني-، تمام حسان، ط01، عالم الكتب، (1413هـ-1993م).

6) التحرير والتنوير . الطبعة التونسية، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م.

7) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تح: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، مؤسسة قرطبة.

8) جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور، جمعها وقرأها ووثقها: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، عمان- الأردن، ط1، 1436هـ-2015م.

9) السنة النبوية بين ضوابط الفهم السديد ومتطلبات التجديد –ندوة علمية دولية رابعة عقدت في رحاب كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي: 25-27 ربيع الآخر 1430هـ، 20-22 أبريل 2009م-، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي- الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1430هـ-2009م.

10) سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تح: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

11) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تح: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط3، 1407 – 1987.

12) صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل بيروت، دار الأفاق الجديدة . بيروت.

13) ضوابط فهم السنة عند الشيخ الطاهر ابن عاشور، رسالة دكتوراه إعداد حسيبة مرابطان إشراف أد/ بوبكر كافي، جامعة الأمير عبد القادر

14) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار المعرفة - بيروت،1379هـ.

15) فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب، تح: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، ط02، دار ابن الجوزي - السعودية / الدمام - 1422هـ.

16) فتح المغيث شرح ألفية الحديث، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ط01، دار الكتب العلمية (بيروت-لبنان)، 1403هـ.

17) الفروق، أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، (بيروت - لبنان)، (1418هـ - 1998م).

18) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل: نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، محمد أركون، ط01، ترجمة وتعليق: صالح هاشم، ، دار الساقي، (بيروت -لبنان)، 1999م.

19) كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ، محمد الطاهر بن عاشور، تح: طه بن علي بوسريح التونسي، دار سحنون- تونس، دار السلام- القاهرة، ط2، 1428هـ-2007م.

20) لسان العرب، ابن منظور، تح: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.

21) اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثقافة، (الدار البيضاء المغرب الأقصى)، (1994م).

22) مجموع الفتاوى، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، (1416هـ/1995م).

23) معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، دار الفكر، (بيروت-لبنان).

24) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى . أحمد الزيات . حامد عبد القادر . محمد النجار، تح: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.

25) مفتاح العلوم، السكَّاكي، لبنان، المكتبة العلمية الجديدة.

26) مفردات ألفاظ القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، دار القلم. دمشق.

27) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطَّاهر بن عاشور، تحقيق ودراسة: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، عمان-الأردن، ط3، 1432هـ/2011م.

28) منهج السِّياق في فهم النص، عبد الرحمان بودرع، 2006م، 1427هـ.

29) الموافقات، لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1،(1417هـ/ 1997م).

30)النَّظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح، محمد الطاهر بن عاشور، الدار العربية للكتاب، تونس . ليبيا، 1979م.